مجلة المنهل ـ المجلد: 08، العدد: 01 (2022 م) ـ ص ص 141 – 158
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

إعادة مقاربة الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي
قراءة في الأسس النقديّة والآفاق الحضاريّة

Re-approaching the Qur'anic phenomenon according to Malik bin Nabi, a reading in critical foundations and civilizational horizons

الباحثة: سارة عبدو (*)
مخبر العلوم الإسلامية في الجزائر تاريخها مصادرها وأعلامها
جامعة باتنة1(الجزائر)
Saraabdo16792@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/12/07	2022/05/12	2022/06/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف عند محاولة مالك بن نبي لتجديد مقاربة الظاهرة القرآنيّة باعتباره مشروعًا افتتاحيًّا تمخّض عنه بقيّة مشاريعه حول "النهضة"، ومهادًا صاغ من خلاله رؤاه وتصوّراته حولها، وسنسعى في مستوى أولّ لبيان موقف مالك بن نبي من مناهج المقاربات القديمة للقرآن وقضاياه سواءً الإسلاميّة أو الاستشراقية، ثمّ نحاول تدبّر المنطلقات والأسس العلميّة والنقديّة التي صاغها مالك بن نبي من أجل قراءة جديدة للظاهرة القرآنيّة، وفي الأخير سنخلص إلى جملة الآفاق والغايات التي يتوخّاها مالك بن نبي من خلال دعوته إلى تجديد منهج التعاطي مع القرآن ومساءلته.

الكلمات المفتاحية:

المقاربة؛ الظاهرة القرآنيّة؛ مالك بن نبي؛ الأسس؛ الآفاق.

Abstract:

This study aims to deal with Malek Bennabi's attempt to renew the approach of the Qur'anic phenomenon as an introductory project that resulted from the rest of his projects on the "Renaissance," and as a cradle through which he formulated his visions and perceptions about it. In the first place, we will seek to explain Malek Bennabi's position on the ancient approaches to the Qur'an and its issues, whether Islamic or oriental. Then, we try to reflect on the scientific premises and foundations put forward by Malek Bennabi for a new reading of the Qur'anic phenomenon. Finally, we will conclude with a number of prospects and goals that Malek Bennabi seeks through his call for a renewal of the approach to dealing with the Qur'an and questioning it

Keywords:

Approach; Qur'anic phenomenon; Malek Bennabi; foundations; prospects.

(*) المؤلف المراسل.

1. مقدمة

شهد العالم الإسلامي جملة من التحوّلات الفكريّة التي جعلت من التجديد الفكري سمة بارزة في ثقافته ومنجزه العلمي، وبات التجديد ضرورة ملحّة وحاجة اجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة تفرضها معطيات الظرف العالمي الجديد، ومكتسباته الراهنة؛ من هنا أدرك العديد من المفكّرين والمثقّفين المسلمين ضرورة الاجتهاد لإيجاد مساربِ وعيٍ جديد، يتمكّن في ظلّه الإنسان المسلم من اللّحاق بقاطرة الحضارة العالميّة في بعدها الفكري والعلمي، ولأنّ المنهج هو المحرّك والموجّه والمعضّد لكلّ فكرة علميّة، والمنهج عند كلّ أمّةٍ سَبيلُها نحوَ علوّها وارتقائها، وإلّا "كان ضياعه كفيلًا بإدخالها إلى دروب الضياع ومتاهات التخلّف"(أبو الفضل منى والعلواني طه، (2009)، ص: 67)، من هنا تعالت نداءات تدعو إلى تجديد مناهج العلوم والمعارف في شتّى مجالاتها وحقولها، ولمّا كان القرآن– في نظر المسلمين– أصلًا لتلك المعارف وأساس الحضارة والموجّه لكلّ مقوّماتها الروحيّة والمادّية، فإنّ قضيّة قراءته وتفسيره تظلّ دائمًا محور التفاف أعلام التجديد؛ وفي مقدّمتهم مالك بن نبي؛ حيث خصّص لهذه القضيّة مساحة واسعة ضمن مشاريع النهضة التي أسّس لها، والتقت محاولاته وجهوده في سبيل تلك النهضة المنشودة في منعرج إشكالي وجوهري مضمونه : كيف السبيل إلى مقاربة جديدة للقرآن يتمكّن من خلالها المسلم في ظلّ تحدّياته المعاصرة من فهمٍ واستنطاقٍ علميّ للظاهرة القرآنيّة بمختلف قضاياها وإشكالاتها؟

إشكالية البحث:

في ضوء هذا الإشكال الذي يطرحه مالك بن نبي يبرز التساؤل الرئيسي لبحثنا وهو:

كيف للمسلم المعاصر إعادة مقاربة الظاهرة القرآنيّة، وتجديد التعامل معها والنظر في قضاياها من منظور مالك بن نبي؟

وينطوي هذا التساؤل الرئيسي على تساؤلات فرعيّة أهمّها:

– هل تستجيب منهجيّة التفسير القديم للقرآن مع المقتضيات الحضاريّة والمعرفيّة للعصر الراهن حسب مالك بن نبي؟

– هل يعني تجديد منهج تفسير وقراءة القرآن عند مالك بن نبي قطع الصلة بالأطر الموروثة عن السابقين وفكّ الارتباط بمناهجهم وآلياتهم في قراءة النص الديني الأوّل؟

– ما هي الأسس النقديّة والعلميّة التي يقترحها مالك بن نبي على مسلم اليوم لمقاربة وقراءة القرآن ضمن إطار علمي ومنطقي؟

– فيم تتمثّل المقاصد والغايات التي يتوخّاها من الدعوة إلى تجديد أسس التأمّل في الظاهرة القرآنيّة والبحث في إعجازها؟

أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى:

- إبراز دواعي تجديد منهج قراءة القرآن من منظور مالك بن نبي.
- بيان موقف مالك بن نبي من القراءات السابقة للقرآن ومناهجها في بحث قضاياه.
- الكشف عن الأسس والمقوّمات التي صاغها مالك بن نبي من أجل قراءة جديدة للقرآن.
- استخلاص المقاصد والآفاق التي يتوخّها مالك بن نبي من طرح منهج جديد في التعامل مع الظاهرة القرآنيّة.

منهج البحث

التزمت في هذا البحث المنهج الوصفي لأنّه الأنسب لطبيعة الموضوع؛ من حيث إبراز رؤية مالك بن نبي للظاهرة القرآنيّة، وبيان أسس وآفاق تجديد منهج التعامل معها، كما واستعنت بآلي التحليل في عرض الأفكار وتفصيلها.

2. المقاربات التقليديّة للقرآن في ميزان مالك بن نبي

إنّ دعوة مالك بن نبي إلى مقاربة جديدة للقرآن جاءت من انطلاقًا من ملاحظات منهجيّة ومعرفيّة قدّمها إلى التفاسير القديمة للقرآن وانتقادات وجّهها إلى القراءات الاستشراقيّة لقضاياه وهو ما سنورده فيمايلي:

2،1. التفسير القديم للقرآن من منظور مالك بن نبي

إنّ سمة التنوّع والثراء الذي اتّسم بها الإنتاج التفسيري للسابقين في شتّى اختصاصاته ومراحله الزمانيّة سواء على المستوى المنهجي أو المضاميني لم تعصم عجلته من التوقّف أمام قطار المعرفة المعاصرة الذي اكتسح أغلب الميادين، وانزاحت وجهته إلى العولمة الإنسانيّة بمختلف قطاعاتها، وباتت أرضية التفسير بالدرجة الأولى مجالًا واسعًا للتساؤل والمراجعة والنقد، وفي هذه السياق انبرى ثلّة من المفكّرين المجدّدين يبحثون عن استراتيجيّة تسعف التفسير القرآني من التأخر والجمود الذي أصابه، وتحرّر المفسّرين من قيود النموذج الكلاسيكي، والأساليب الموروثة في قراءة النص القرآني؛ إذ "لم يعد الوضع الإبستيمي للمعرفة الآن وهنا، يسمح باجترار آراء السلف، أو إعادة إنتاج نصوصهم بلغة جديدة فحسب؛ ذلك أنّ أسلافنا من العلماء بذلوا وسعهم في تفهّم النصّ الديني المحوري في الثقافة الإسلاميّة، ووظّفوا من أجل ذلك المقصد علومًا شتّى مدارها حول تاريخ المصحف، وأسباب النزول، والنسخ والقراءات، والبلاغة واللغة والتفسير، وغيرها.. ذلك كلّه بما توافر لديهم من أدوات البحث والنظر من جهة، وبما وضعوه من سقف معرفي اعتبارًا للآفاق الذهنيّة لقرّائهم من جهة أخرى"**(الجمل بسّام(2018م)، ص:09)**.

الأمر الذي أفضى بأعلام التجديد إلى التفطّن أخيرًا إلى أنّ المعضلة التي يعاني منها التفسير اليوم تكمن في المقام الأوّل في الاتكال على التراكم التصنيفي، والإنتاج الغزير الذي خلّفه المفسّرون دون سعي منهم إلى تجديد العدّة المنهجيّة، ولم يكن مالك بن نبي بدْعًا من أولئك الأعلام الذين سعوا إلى تدشين مرحلة جديدة في التعامل مع القرآن واستنطاق معانيه فقد جاء كتابه "الظاهرة القرآنيّة" ليعلن عن بداية ثورة منهجيّة في مجال التفسير(درّاجي محمّد2003م، ص: 02) ، وانطلق هو أيضًا من النقطة التي توقّف عندها أئمّة الإصلاح والمفسّرون المجدّدون من قبله وفي مقدّمتهم رشيد رضا الذي رفع شعارًا في مقدّمة تفسيره يطالب من خلاله بأن يتّجه التفسير القرآني إلى تكريس وتفعيل المقاصد، بدل استعراض المصطلحات والاحتفاء بالقواعد "فقد كان من سوء حظ المسلمين أنّ أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية، والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلّمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلّدين، وتأويلات المتصوّفين.. وبعضها يلفته عنها بكثرة الروايات بما مزجت به من خرافة الإسرائيليات.."(رشيد رضا، محمّد،1947م، ص: 07).

لذلك فإنّ مهمّة مالك بن نبي التي جاء ليؤكّد عليها من خلال كتابه لا تتباين على الإطلاق مع ما نحاه رشيد رضا في مقدّمته بل إنّها تسير في ذات الاتّجاه، ولا تكتفي بما نوّه إليه وإنّما تتخطّاه إلى أبعد ما يكون، فلئن كان رشيد رضا عاب منهجية من سبقوه من المفسّرين الذين انكبّوا على المبنى وأهملوا المعنى فإنّ مالك بن نبي تجاوز الحديث عن هذه الخاصيّة التي اتسمت بها تلك التفاسير، وإنّما سعى إلى إحداث نقلة منهجيّة تتعضّد بما خلّفه السابقون، و تستثمر محصّلة الثورة المعرفيّة والعلميّة، ولا يعني ذلك بالضرورة أن يكون "ضدّ فهم السلف للقرآن بموجب التركيبة التي تناولوه من خلالها، غير أنّ تكشُّف القرآن عن تركيبة أخرى يجعلنا في مواجهة عطاءٍ جديد ظلّ مكنونًا لمرحلة تاريخيّة خطيرة... مرحلة يهيمن بها القرآن على كلّ مناهج الفكر العلمي الوضعي، ويتجاوز بها كلّ المعطيات الوضعيّة السلفيّة، التقليديّة الدينيّة"(أبو القاسم حاج حمد، دت، ص: 131)، من هذا المنطلق كانت الحاجة اليوم أكيدةً وملحّة إلى سبيل جديد لمساءلة الظاهرة القرآنيّة ومراجعة أسس التعاطي معها، وعقلنتها، وتغيير منطق مقاربتها؛ والسبب في ذلك أنّ "مشكلة التعامل مع القرآن تظلّ قائمة، أمام عدم المحاولة في تجديد الطرق القديمة، وهنا يلحّ على الانطلاق من مدخل التفسير القرآني إلى تطوير التعامل مع القرآن(عبد الله حسّان، 2019، ص:147)، وهكذا حاول مالك بن نبي –انطلاقا من ملاحظاته على مدارس التفسير الكلاسيكي ومقولاتها السائدة منها تفسير طنطاوي جوهري(1870–1940)، الذي كان بعيدًا عن الاهتمامات المنهجيّة، ويفتقر إلى الهاجس التأطيري والأدوات الإجرائيّة الفعّالة– حسب رأيه– وكذلك

المجهودات الرائدة لكلّ من رشيد رضا(1865-1935)، وأستاذه محمّد عبده(1849-1905)، التي حاولت التجديد في زمانها، إلّا أنّ الجدل الديني كان سمتها الأساسيّة، وحرّاك جوهرها(طبجون، 2019، ص: 06)، حاول أن يتغلغل في معطيات تلك الإسهامات التفسيريّة، والنفوذ إلى داخل إطارها ومنظومتها المنهجيّة، ومن ثمّ تحليل بنيتها ومضامينها، حتى يتسنّى له البرهنة على افتقارها إلى التأطير المنهجي، والنظر العقلي؛ والمنطق العملي، كما وتجرّد مالك بن نبي من ذاتيته وشخصيّته لينقد مناهج الأوائل، ويتطلّع إلى منهج موضوعي يتقبّله العقل، بعيدًا عن التلقّي السلبي(غازي الشمري ويايوش، 2017م ص: 86)، كما هو الحال مع :"التفسير الكبير الذي ألّفه الشيخ طنطاوي جوهري، إنتاج علمي أشبه بدائرة المعارف، ولا ينطوي على أقلّ اهتمام بتحديد المنهج، أمّا تفسير رشيد رضا، الذي اتّبع فيه إمامه الشيخ محمّد عبده، فلم يضع هو الآخر هذا المنهج، فقد كان همّه أن يخلع على المنهج القديم صبغة عقل جديد، ومع أنّه لم يعدّ طريقة التفسير القديم تفسيرًا جوهريًّا، فإنّه قد خلق في الصفوة المسلمة، التي تعشق التجديد الأدبي اهتمامًا بالنقاش الديني" (بن نبي، 1987م، ص: 58).

إنّ المشكلة التي تعاني منها تلك التفاسير –في نظر مالك بن نبي– تكمن في المقام الأوّل في ضمور سؤال المنهج على أغلبها في مقابل طغيان "ظاهرة التكديس، تكديس المعلومات طبعًا، بحيث يصبح هذا العمل الشاق كلّه أقرب إلى دائرة معارف منه إلى تفسير القرآن، كما يعبّر عن ظاهرة جديدة؛ هي تلك العلمانيّة القديمة، التي ليست بالنسبة للفكر الإسلامي إلّا عمليّة تعويض في الميدان الذي شعر فيه أكثر بتحدّي الحضارة الغربيّة" (بن نبي، 1969، ص: 22).

وعليه فإنّ إغناء تعامل العقل المسلم المعاصر مع النص المحوري للتراث الإسلامي –وفقًا للرؤية البنابويّة– لن يتأتّى في ظلّ إصراره وحرصه على الاستمرار في بذل الجهد التجميعي الهادف إلى استيعاب الزاد المعرفي دون أي عمل تقويمي أو نقدي، (النيفر، 2000 م، ص: 33) ، وهو العمل الذي يتطلّع مالك بن نبي إلى إنجازه بعد أنّ يتوفّر الشرط الأساسي لذلك وهو "أن يعدّل منهج التفسير"؛ إذ "إنّ تلك العبارة تكشف الرؤية الجديدة التي يدعو إليها مالك بن نبي، فهي ليست نفيًا مطلقًا للقراءات التفسيريّة السابقة، وهي ليست دعوة للاستئنافيّة الصفريّة، بل هي دعوة إلى التجديد؛ بمعنى الجمع بين الصواب الذي تحقّقه كلّ دورة حضاريّة"(بوديرم، 2011، ج1، ص: 275)، واستيعاب نتاجها، وإكمال نقائصها، ونقد مثالبها، وليس المقصود بتجديد قراءة النّص لدى مالك بن نبي تقديم تفسير جديد لآيات القرآن، ولا شرح متن النّص شرحًا حديثًا، وإنّما إثارة جملة من القضايا الفنّية والفكريّة المتعلّقة بنصّ القرآن منها القديم، ومنها المستحدث لتوظيفها فيما يثبت ألوهيّة القرآن، وتجاوزه القدرة البشريّة، وصولًا إلى مخاطبة المتلقّي بخطاب يحمل الخصائص الابستيميّة للمرحلة التاريخيّة التي ينتمي إليها ليكون اقتناعه

به متناغمًا مع الحيثيات المعرفيّة والفكريّة السائدة متجاوزًا الإيمان القائم على التسليم بصحّة ما جاء عن السابقين وكذلك ليدعّم الأساس العقلي للإيمان(بوعلاقي، 2013، ص: 74) في وقت تشتدّ فيه الحاجة للتصدّي لذلك السيل الهائل من الدراسات والأبحاث التي أنتجها زعماء الاستشراق وتلامذتهم من المسلمين، الذين عملوا تحت توصياتهم العلميّة، واستساغوا فرضياتهم، وتبنّوا استراتيجياتهم في التعاطي مع القرآن وإشكالياته، رغم ما أسفرت عنه مسلّماتهم من أخطاء وثغرات معرفيّة، وما اعتراها من قصور على المستوى المنهجي كما سيأتي.

2،2. المقاربة الاستشراقية للقرآن

إنّ مبالغة الدراسات والنظريات الاستشراقيّة خاصّة الكلاسيكيّة في الاتكاء على مقولات المنهج الفيلولوجي (**Philologie**)[1]، لوحده، في بحث القرآن ومسائله، واستمرار روّاد الدراسات الاستشراقيّة في تأجيل انفتاحهم على العدّة المنهجيّة الأخرى التي أفرزتها الثورة العلميّة الغربيّة متجاهلين العديد من مكتسبات علوم الإنسان والمجتمع، غير ساعين للتحرّر من القواعد الابستمولوجيّة التي رسمت لهم في الاشتغال على القرآن ومسائله، والتي ترفض وبشدّة أن يتخلّى الباحث المستشرق عن النظرة الإيديولوجيّة الاستعلائيّة، وأن ينظر إلى القرآن باعتباره نصًّا أصيلًا مختلفًا في تشكّله عن النصوص الدينيّة الأخرى"(المكّي، 2018م، ص: 24) ، تلك العوامل وأخرى أفضت إلى وضع المقاربات الاستشراقيّة – هي الأخرى على الرغم من تعهّدها بالموضوعيّة العلميّة في الطرح والنقاش– محلّ نقد وتقييم من قبل مالك بن نبي، سواء من حيث المنهج، أو من حيث المضمون، أو من حيث التوّجه؛ حيث ينطلقون في أدبياتهم من مسلّمات وحجج واهية لإثبات معتقداتهم، والتشكيك بالمصدريّة العلويّة للقرآن، ودحض كلّ ما يمت إلى ذلك بصلة، جلّ تلك المظاهر وأخرى كان لها وقعها وصداها على الساحة الثقافيّة الإسلاميّة، "وأصدق مثال على ذلك بلا جدال، الفرض الذي وضعه المستشرق الإنجليزي "مرجليوث" عن الشعر الجاهلي فقد نشر هذا الفرض في تمّوز عام 1925، في إحدى المجلّات الاستشراقية؛ وفي خلال عام نشر طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي فهذا التسلسل التاريخي معبّرٌ تمامًا على تبعيّة أفكار بعض قادة الثقافة العربيّة الحديثة للأساتذة الغربيين"(بن نبي، 1987م، ص: 56)، ويفصح مالك بن نبي عن السبب الذي دفعه إلى الانطلاق من هذه القضيّة بالذات في الدعوة إلى ايجاد مسلك جديد في فهم

[1] - لفظ يتألف من كلمتين من أصل إغريقي هما: **Philos** وتعني: المحبّ، و**(logie)** وتعني: اللغة والكلام، وبالتالي فأنّ أصحاب إذا أطلقوه لا ينصرف إلاّ على دراسة اللغتين الإغريقيّة واللاتينيّة من حيث قواعدهما، وتاريخ أدبهما، ونقد نصوصهما.. أنظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 2009، ص:20، أمّا من الناحية الاصطلاحية: فقد عرّفه تمّام حسن بأنّه" دراسة النصوص القديمة من حيث القاعدة ومعاني المفردات وما يتّصل بذلك من شروح ونقد واستشارات تاريخيّة وجغرافيّة، أنظر حسن، ، 2000، ص: 235)

الظاهرة القرآنيّة قائلًا: " ذكرنا هنا فرض مرجليوث لكي نبرز أمام القارئ المسلم ضرورة تطبيق منهج تحليلي جديد في تفسير القرآن، ويستطيع القارئ أن يدرك قيمة هذا المنهج القائم على دراسة الظواهر وعلى طرق التحليل النفسي، وسيدرك أيضًا أنّنا لا ندرس آراء مرجليوث أومن تتلمذ عليه مثل(طه حسين)، وإنّما نريد به دراسة الظاهرة القرآنيّة"(بن نبي، 1987م، ص56).

ولعلّ حديث مالك بن نبي عن هذه المسألة التي أثارها المستشرق مرجليوث وطه حسين في مدخل الظاهرة القرآنيّة، والتعبير عن موقفه منها إنّما هو ناجم بالأساس عن قناعته الشخصيّة، وإدراكه التام لأهمّية العلاقة التي تربط الشعر الجاهلي بالتفسير القرآني، من جهتين:

الأولى: من حيث أنّ الشعر الجاهلي برهان على صحّة المصدريّة العلويّة للقرآن وإعجازه "فالمشكلة بوضعها الراهن إذن تتجاوز نطاق الأدب والتاريخ، وتهمّ مباشرة منهج التفسير القديم كلّه، ذلك المنهج القائم على الموازنة الأسلوبيّة معتمدًا على الشعر الجاهلي بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل... ومرجليوث أراد بفرضه أن يفرض على المشكلة تطوّرًا ثوريًّا، حين أدخل في الوقت المناسب ما يشبه (الديناميت) الذي قد ينسف كلّ مناهج التفسير القديم"(بن نبي، 1987م، ص: 67).

أمّا **الجهة الثانية:** فتتعلّق بمكانة الشعر الجاهلي عند المفسّرين من حيث أنّه يمثّل مسلكًا مهمًّا في فهم القرآن وبيان معانيه والشواهد على ذلك لا تحصى؛ وبالتالي سيفضي الشكّ في صحّة الشعر الجاهلي حتمًا إلى إحراج النص القرآني، نظرًا لتلك المنزلة التي يحظى بها (بوعلاقي، 2014م، ص: 79).

من هذا المنطلق نخلص إلى أنّ كلتا المقاربتين الإسلاميّة والاستشراقية على الرغم من الجهود التي كرّستها في بحث الظاهرة القرآنيّة –من منظور مالك بن نبي– لم تكن آلياتها بمنأًى عن نزعة التمجيد والتعالي، بالإضافة إلى إعراضها عن فتح مجال للمساءلة والنقد، والنظر العلمي والمنطقي التي باتت قضايا القرآن بحاجة إليه في ظلّ الابستيميّة المعاصرة، وهي المهمّة التي يتطلّع إلى تفعيلها انطلاقًا من طرحه لجملة من الأسس الموضوعيّة والعلميّة للتعامل مع الظاهرة القرآنيّة بكافّة أبعادها.

3. أسس تجديد منهج مقاربة الظاهرة القرآنيّة من منظور مالك بن نبي

صاغ مالك بن نبي جملة من الأسس التي بموجبها يتمكّن المسلم المعاصر من مقاربة علميّة للظاهرة القرآنيّة تتمثّل في:

1،3. استعادة الظاهرة القرآنيّة واستنطاقها في ضوء أفق نقدي لا اعتقادي

إنّ أولّ أساس يلحّ مالك بن نبي عليه و يضعه بين يدي المسلم المعاصر والذي يقبل على تقديم أية محاولة أو مساهمةٍ استنطاقيّة للظاهرة القرآنيّة هو استدعاء آلة التحليل والنقد بدل الانتصار للدين

والمعتقد، وعلى الرغم من اعتراف مالك بن نبي الصريح بكون مشكلة التعاطي مع القرآن وتفسيره هي مشكلة العقيدة بالدرجة الأولى(بن نبي، 1987م، ص: 59)، إلّا أنّه لا يتوقّف في كتاباته عن التذكير الدائم بأنّ الخلل الحضاري الذي نعانيه إنّما يكمن في "رسالة المسلم لا عقيدته، فهل الإنسان وهو يستمع إلى المسلم وهو يتحدّث عن رسالته إنسان تفحّص أو راجع القرآن من حيث هو فكرة صحيحة؟"(بن نبي، 1991م ص: 51) إنّ طريق الحلّ – في نظر مالك بن نبي– هو حثّ المسلم المعاصر إلى التسلّح بروح العلم، والتزام مبدأ النقد، والتحلّي– قدر الإمكان– بسمة التعمّق والتأمل في بحث قضايا القرآن، والتعامل مع إشكالاته؛ لذلك وضع في كتابه الظاهرة القرآنيّة برنامجًا معرفيًّا ركّز فيه على أشكلة الوحي وفق تصوّرات جديدة بعيدًا عن الإيمان الساذج.. ويضيف كذلك إشكاليات أخرى تتعلّق بجدوى المنهج الكلاسيكي في فهم النص القرآني.. والذي يترتّب عنه سؤال جزئي آخر وهو: ما جدوى القول بالإعجاز اللغوي اليوم؟ (الهوّاري، 2018، ص: 97) في محاولة علميّة جادّة للتحرّر من بنود مؤسّسة التفسير الكلاسيكي في طرح مبحث الإعجاز القرآني.

3،2. تجاوز مرحلة التصنيف التعليمي في طرح قضيّة الإعجاز القرآني

مثّل مبحث الإعجاز بالنسبة لمالك بن نبي حجر الزاوية، الذي تقوم عليه دراساته القرآنيّة، وجهوده في إطار بحثه للظاهرة القرآنيّة؛ فقد استحوذ اهتمامه من حيث أنّه منطلقًا يصوغ من خلاله مقارباته وتوجّهاته، ثمّ من حيث هو غاية يسعى إلى إثباتها كحقيقة يكون السبيل الوحيد إليها العلم والمنطق، لذلك "اعتبر مالك بن نبي أنّ الإعجاز القرآني في حاجة أكيدة للتجديد؛ نظرًا إلى تقادم المقياس الأسلوبي المعتمد؛ فما كان فاعلًا في عقل المسلم ووجدانه من خصائص لغويّة في زمن الأوائل لم يعد مؤثّرًا في مسلم هذا العصر، لذا حاول مالك بن نبي تجاوز حصر الإعجاز في الجانب اللغوي وإدراجه في الصورة الأدبيّة؛ لأنّ الذائقة اللغويّة متغيّرةٌ بتغيّر الخصائص الثقافيّة عبر مختلف المراحل التاريخيّة، والإعجاز صفة ملازمة للقرآن، ثابتة فيه، لا تزول عبر العصور والأجيال، أدركها العربي في الجاهليّة بذوقه الفطري لمّا كانت اللغة هوايته"(بوعلاقي، 2014م، ص: 76)، والبلاغة صنعته، ومعياره الذي يحكم به على الكلام من حيث جودته أو رداءته "لكنّ المسلم اليوم فقد فطرة العربي الجاهلي وإمكانيات عالم اللغة في العصر العبّاسي، وعلى الرغم من هذا فإنّ القرآن لم يفقد بذلك جانب الإعجاز لأنّه ليس من توابعه بل من جوهره، وإنّما أصبح المسلم مضطرًّا إلى أن يتناوله في صورة أخرى وبوسائل أخرى"(مالك بن نبي، 1987، ص: 68)، تكون الأنسب مع مقتضيات اللحظة المعرفيّة الراهنة، "وتخرج الإعجاز عن التصوّر النمطي الموروث"(بوعلاقي، 2014م، ص: 76)، الذي سجن القرآن داخل تركيبته اللغويّة والبلاغيّة فقط دون أن يتعدّاها إلى معطياته المعرفيّة، أين كانت "الآية القرآنيّة لم تكن لتستخدم في

منهجها إلّا وسيلة منطقيّة تساق لغرض تعليمي، فالقرآن في منطقها معلّم يقدّم لها مقاييس من كلّ نوع، وبراهين تفحم الخصوم، وأدلّة تدين بعض التقاليد والبدع التي لا تتّفق وما جرى عليه السلف، وهو أيضًا نموذج جمال، بل مجموعة من المقاييس الأدبيّة تستخدمها بعض العلوم الاستنباطيّة في علوم البلاغة ففي كلّ هذه الحالات لم تكن الفكرة القرآنيّة لتمسّ مباشرةً ضمير إنسان ما بعد الموحّدين أو طبيعته، لا تمسّ مجال حياته وجوانب فكره، ومناحي سلوكه" (مالك بن نبي، 1986م، ص: 157) ، وهي الغايات التي يتوخّاها مالك بن نبي من خلال دعوته إلى النظر في مبحث الإعجاز من زويا مختلفة وحديثة، "وبمثل هذا يتحرّر من القاعديّة الجاهزة التي حوّلت القراءة البيانيّة إلى ضرب من التصنيف التعليمي، ويرجع به إلى التجربة الفرديّة في التذوّق الجمالي التي كانت من قبل، ولن يتحقّق له ذلك إلّا حين يتخلّى عن التراكم العلمي الذي أفسد فطرة التذوّق(بوديرم،2011م، ج1، ص: 274).

3، 3 - تناول إعجاز القرآن ضمن إطار ابستيمولوجي

إنّ دعوة مالك بن نبي الملحّة إلى تجاوز المرحلة الكلاسيكيّة التعليميّة في مساءلة إعجاز القرآن تفرض عليه بالضرورة اقتراح مسلك ابستيمولوجي في تذوّق القرآن في شكله ومضمونه بأسلوب ينسجم مع مستجدّات الواقع؛ حيث دعا بن نبي إلى التخلّص من سلطة ذلك النموذج السابق، وطرح خطّة بديلة للدرس المعرفي للقرآن في ضوء مسألة الإعجاز، والرد على المستشرقين، تتحدّد معالمها فيمايلي:(عبد الله حسّان، 2018م، ص: 150-155).

1، 3، 3- التنجيم: إنّ نزول القرآن مجزّءًا حسب الحوادث والوقائع يمثّل قيمة إعجازيّة تربويّة رائعة؛ فتلك –في الواقع– هي الطريقة التربويّة الوحيدة الممكنة في حقبة بميلاد دين وبزوغ حضارة... وسيهدي الوحي خلال ثلاثة وعشرين عامًا سير النبي وأصحابه خطوةً خطوةً نحو هذا الهدف البعيد، وهو يحوطهم في كلّ لحظةٍ بالعناية الإلهيّة المناسبة؛ فهو يعزّز جهودهم العظيمة، ويدفع أرواحهم وإراداتهم نحو هدف الملحمة الفريدة في التاريخ، فيكرِمُ بآيةٍ صريحة قضاء شهيد أو استشهاد بطل.

2، 3، 3- التنوّع والشمول: وهي صفة ملازمة للتنجيم؛ فكون القرآن منجّمًا يستدعي بالضرورة أن يكون متنوّعًا وشاملًا في موضوعاته وغاياته في كلّ لحظة ينزل الوحي فيها؛ إذ يستنكر مالك بن نبي حال نزول القرآن جملة واحدة أو كوثيقةٍ كاملة كيف سيؤدّي دوره حيال طبيعة الإنسان التي جاء يصوغها في ذلك العصر، لو أنّه سبق بنزوله أحداث حُنَين وأُحُد ؟..وماذا كان يكون لو أنّه لم يأتِ لكلّ ألم بعزائه العاجل، ولو أنّه لم ينزل لكلّ تضحيّة جزاءها، ولكلّ هزيمةٍ أملُها، ولكلِّ نصرٍ درسه، ولكلّ عقبةٍ إشارة إلى ما تقتضيه من جهد، ولكلّ خطر أدبي أو مادّي روح التشجيع اللازمة لمواجهته؟ فالحركة التاريخيّة والاجتماعيّة والروحيّة التي نهض بأعبائها الإسلام لا سرّ لها إلّا في هذا التنجيم.

3، 3، 3- الوحدة الكمّية: وهي بدورها خاصيّة فريدة للوحي القرآني، وتعلن بوضوحٍ عن ربّانيّة مصدره "فهو في أساسه متفاصل، شأن مجموعة عدديّة، أي متكوّن من وحداتٍ متتاليّة هي الآيات؛ فكلّ وحي يضمّ وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنيّة، بيد أنّ هذه الوحدة القرآنيّة ليست ثابتة؛ فهي لا تماثل الوحدة التي تزيد في مجموعة الأعداد... فإنّ للوحي مقياسًا متغيّرًا هو: كمّيته أو سعته، تلك السعة التي تتراوح بين حدّ أدنى هو الآية، وحدّ أقصى هو السورة"(بن نبي، 1987م، ص: 182).

4، 3، 3- الوحدة التشريعيّة: قدّم مالك بن نبي من خلال الآية –23– من سورة النساء في قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ مثالًا واضحًا على الترابط والنظام المنطقي في آيات التشريع، وبيّن الأساس التي صنّفت من خلاله الحالات المذكورة؛ فتعداد ثلاث عشرة حالة، وتصنيفها الواضح يستوجب ملابسات نفسيّة وزمنيّة مع خصائص الوحي.. فالنبي لم يفكّر في الحالات المذكورة، ولم ينظّمها أيضًا بينما ترينا مناقشة النص تصنيفًا للحالات المحرّمة بدرجة القرابة العصبيّة، والترتيب النزولي..(بن نبي، 1987م، ص: 184–185).

إنّ مالك بن نبي أراد أن يبرهن بأنّ ترتيب الحالات في هذه الآية التشريعيّة لم يكن اعتباطيًّا أو عشوائيًّا وإنّمًا جاء في بنية منطقيّة تؤكّد مرّة أخرى على صلة هذه الآية بالذات الإلهيّة، وتنفي علاقتها بالذات المحمّدية من حيث كونها فاعلةً في تلك البنية.

5، 3،3- الوحدة التاريخيّة:

قال تعالى: "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۘ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾(المنافقون) آية أخرى يعرضها مالك بن نبي تثبت وحدة القرآن، ولكن هذه المرّة في جانبها التاريخي؛ حيث حاول مالك بن نبي إثبات سبب تموضع هذه الآية بالذات في هذا المكان بالتحديد مشيرًا إلى الغاية من مجيئها قائلًا: "وتظهر المسحة التاريخيّة للآية في الفقرة الأولى التي تصوّر لنا حادثًا عاديًّا هو حضور المنافقين بين يدي النبي، ولقد جاءت هذه الفقرة في مكانها فعلًا لأنّ الهدف العاجل من هذه الآية هو أنّ تصف لنا غدر المنافقين وكذبهم، فمن الواجب أوّلًا أن تعطينا وصفًا لإطار الحادثة، وهو كون المنافقين في حضرة النبي، أمّا الأفكار التالية لذلك فينبغي أن تَجِيءَ وفق نظام طبيعي يتبع درجة الأهميّة، أي ينتقل من الفكرة الرئيسيّة إلى الفكرة التابعة، وخاصّة في الأسلوب الخطابي كما هو شأن القرآن"(بن نبي، 1987م، ص: 187).

6، 3، 3- الصورة الأدبيّة للقرآن: يدرك الضليع في اللغة والأدب إدراكًا جازمًا أنّ القرآن قد أحدث ثورة أساسيّة في البناء الفنّي للصورة التقليديّة، ففاجأ العرب بأنواع من العلاقات المتطوّرة والبعيدة والمتنوّعة بين الأطراف التي تتكوّن منها الصورة التي تجاوزت عصرها بمسافات شاسعة؛ فبعد أن كانت الصور محدودة النوعيّة، محدودة العدد، محدودة الخيال، محدودة العلاقات بين أطرافها، وتكاد تقتصر على الشعر دون النثر، خرج القرآن عن هذه الحدود جميعًا، فلا الصور هي الصور ولا أبعادها هي الأبعاد ولا أطرافها هي الأطراف، فدخل بالخيال العربي حقبةً جديدة، ووضع العرب مرّة واحدة أمام عالم كامل من الصور لا يعرفها شعرهم ولا نثرهم بهذه الأبعاد والعلاقات الجديدة(ساعي، 2012م، ص: 244-245)، ومن منطلق هذه الحقيقة جعل مالك بن نبي من الصورة الأدبيّة للقرآن مجالًا واسعًا؛ بحيث تتجاوز بمفهومها وخصائصها نطاق النقد والأدب، وتقدّم نفسها كأحد المقولات الجديدة للدراسة الظاهرة القرآنيّة في جانبها الأدبي والبلاغي، وقدّم منهجًا "يجاوز التعليميّة التي وقعت فيها تلك العلوم، كما يستعيد القدرة الذاتيّة على التلقّي، ذلك أنّ المثقّف المسلم المعاصر فقد القدرة على إدراك الخصائص الجماليّة للغة العربيّة، وفقد التذوّقين الفطري والعلمي البلاغي، ومن ثمّ صار من باب الواجب الحضاري إعادة الإدراك الشخصي لقيمة القرآن ككتاب منزّل"(بوديرم، 2012م، ج1، ص: 22).

والحاصل ممّا تقدّم أنّ تجاوز مساءلة قضيّة الإعجاز في نمطها الكلاسيكي الذي تحكمه مقوّمات التنظير والتقعيد والتصنيف، واستدعاء لحظات التعقّل والموضوعيّة التي تقتضيها علوم العصر ينبغي أن يكون- في نظر مالك بن نبي- المطلب الأساسي للمسلم المعاصر؛ إذ إنّ توثيق الصلة بين الإعجاز والموضوعيّة العلميّة في التعامل معها من شأنه أن يؤدّي دوره الحاسم في ترجيح الكفّة للقرآن باعتباره كتاب إلهي ومنحه الثقل الإبستيمي، في مقابل غيره من الكتب المقدّسة عند إخضاعها إلى المقارنة والموازنة.

3،4- إرساء موازنة بين الكتب المقدّسة ضمن إطار علمي وموضوعي

حيث خصّص مالك بن نبي جزءًا كبيرًا من كتاب الظاهرة القرآنيّة لتأسيس مقاربة علميّة للنصوص المقدّسة تحكمها منطلقات نظريّة في الطرح، وأسس منهجيّة على مستوى التطبيق" وقد بدت هذه المقاربة في مستهلّها متحرّرة من حرارة الانتماء الديني ضاربة بسهم في الموضوعيّة المرتكزة على النزعة العقليّة المنحدرة من مرتكزات مالك بن نبي الفكريّة محقّقة اختلافًا نوعيًّا عمّا ألفناه في هذا المجال لدى بعض معاصريه، مثل رشيد رضا، فلم يذهب إلى تفضيل القرآن عن بقيّة النصوص المقدّسة التي لم يأت القرآن ليلغيها، بل ليظهرها في إطار تطوّر أنساق الظاهرة الدينيّة عبر مسيرة الإنسان، هذه المسيرة الساعية إلى الاستكمال وإيصال الحقيقة إلى البشر"(بوعلاقي، 2013م، ص:81).

إنّ مالك بن نبي –على الرغم من انتمائه إلى محضن الثقافة الإسلاميّة، وتشبّثه بمقوّمات القرآن، وإقراره بعلويّة مصدريّته، وانكبابه على إبراز بؤر الاتصال والتلاقي بينه وبين الكتب المقدّسة؛ إذ "إنّ القرآن يؤكّد مستعلنًا صلته بالكتاب المقدّس، فهو يطلب دائمًا مكانه في الدورة التوحيديّة، فهو يثبت – باعتداد– التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهو يؤكّد هذه القرابة صراحةً"(بن نبي، 1987م، ص: 199) إلّا أنّه لا يمانع من الحثّ على النقد الحصيف، والتقييم الموضوعي لمختلف النصوص الدينيّة، وعدم الانصياع إلى المقارنات المؤدلجة والمتعاليّة، وكلّما بذل المسلم المعاصر وسعه في التزام تلك الأسس والمقوّمات كلّما قطع أشواطًا بعيدة نحو غاياته المنشودة، ويجعل من رهانات وتطلّعات بحثه تلوح في الأفق.

4. آفاق تجديد منهج مقاربة الظاهرة القرآنيّة عند مالك بن نبي

يهدف مالك بن نبي من خلال دعوته إلى تجديد منهج التعامل مع القرآن وقضاياه إلى بلوغ غايات وآفاق أهمّها:

1، 4. البرهنة على مصدريّة القرآن العلويّة

إنّ تقرير المصدريّة الإلهيّة للقرآن، وترسيخ تلك الحقيقة في ذهن الإنسان الغربي الباحث عنها، أو المسلم العربي المشكّك في صحّتها غاية الغايات التي ناشدها مالك بن نبي كما وصفها "محمّد درّاز" في تقديمه لكتاب الظاهرة القرآنيّة ؛ فقد أفنى الرجل جلّ جهوده في سبيل إثبات تلك القضيّة التي طرحت في الماضي ولا تزال تطرح إلى اليوم، وذلك من خلال لجوئه إلى التفريق والفصل التامّ بين شخصيّة الرسول– صلى الله عليه وسلّم– البشريّة وظاهرة الوحي "من منطلقات ثابتة وعقليّة تلغي كلّ إتّباع أعمى وانسياق قاطع لا يستند إلى سلطة العقل(الشمري ويايوش، 2017، ص:86).

2، 4- مقارعة مطاعن الاستشراق ومزالق المستشرقين

سبق وأنْ تعرّضنا لمسألة الاستشراق والقرآن وبيّنّا موقف مالك بن نبي منها؛ باعتبارها أحد العوامل الرئيسيّة التي ساهمت في بروز كتاب "الظاهرة القرآنيّة"؛ إذ إنّ" محاولة البحث عن منهج عمل إسلامي، يتصدّى إلى مفرزات المستشرقين حول القرآن، وينافح عنه أمام مؤثّرات المتحاملين ضدّه، ويردّ على تحدّيات العصر كان أحد انشغالات مالك بن نبي الرئيسيّة، وأحد همومه المعرفيّة في دراساته القرآنيّة باعتباره شخصيّة إسلاميّة، استجابت للتحدّيات الزمكانيّة التي يواجهها عصره، وأدركت حجم المسؤوليّة الملقاة على كاهله من حيث هو فرد ينتمي إلى مجتمع إسلامي ومسلّمٌ بحقيقة القرآن ككتاب سماويّ (الشمري ويايوش، 2017م، ص: 75)؛ فقد طالع إنتاج كبار المستشرقين والمتتلمذين على يدهم حول القرآن والإسلام ولاحظ ما جاء فيها من التحامل والتطاول "الذي يعرضه المستشرقون في مناهجهم ذات

الطابع العلمي كما يزعمون، فهو يرغّب بعض المثقّفين في تبنّيها بكلّ حماسة وقوّة، وغاية هذا الهوى السياسي والديني هو في هدم الأصول والثوابت التي بنيت عليها الثقافة الإسلاميّة، والشكّ في المصادر الأساسيّة لهذه الثقافة" (بن نبي، 1987م، ص: 22)، وفي مقدّمتها القرآن؛ فقد استشعر مالك بن نبي حدّة وخطورة تلك المادّة التي جاءت في ثنايا كتب الاستشراق ومن تابعهم، وأخذ على عاتقه مسؤوليّة الدفاع عن مصدريّة القرآن، وبيان إعجازه بكلّ ما أوتي من فهم ومنطق وعمل، ودحض شبهات المستشرقين في هذا الخصوص.

4 ،3- بناء شخصيّة فاعلة لدى الشباب المسلم المعاصر

إنّ أوّل غاية يتطلّع مالك بن نبي إلى تحقيقها من خلال دعوته إلى تجاوز المنظومة المنهجيّة في مقاربة الظاهرة القرآنيّة تحمل في طيّاتها شروط إنجازها، وتمتلك مؤهّلات تحقّقها في ذاتها؛ ذلك أنّها هي موجّهة بشكل خاص لفئة الشباب المسلم المعاصر فهو في نظره المحرّك الفاعل في الحضارة، وصمّام الأمان الذي يعوّل عليه من أجل الصمود أمام إعصار الحداثة الغربيّة؛ "حيث لم نكد نخرج من هيمنة المستعمر ومن تحرّشاته الجديدة"(هاني، 2006م، ص: 357)، التي استهدفت وتستهدف كافّة مقدّراته الثقافيّة والفكريّة، فهو بذلك يفتح له آفاقًا تساعده على "تجديد النظر في مسائله وقضاياه، لا سيّما العقل البحثي والأكاديمي الإسلامي"(حسان عبد الله، 2018م، ص:149).

وهي رؤية لا يمكن لها الرؤية التجسّد واقعيًّا إلّا من خلال الأخذ بناصية "منهجٍ تحليلي في دراسة الظاهرة القرآنيّة، وهو منهج يحقّق من الناحية العلميّة هدفًا مزدوجًا هو: (بن نبي، 1987م، ص:53)

1- أنّه يتيح للشباب المسلم فرصة التأمّل الناضج في الدين.

2- أنّه يقترح إصلاحًا مناسبًا للمنهج القديم في تفسير القرآن.

إنّ الشباب المسلم اليوم بأمس الحاجة إلى تعزيز علاقته بالقرآن وإعادة قراءته أكثر من أي وقت، عبر منهجيّة تستوعب ما عهده إليهم السابق، وتستثمر منجزات اللاحق، منهجيّة تمكّنه من بسط حضوره في واقع أمته ومجرياته، وتدفعه لتشخيص علله ومعضلاته، لا "التغنّي بالماضي التليد والجمود عنده دون أن تكون حركيّة وفاعليّة تقود اتجاهًا تقدّميًّا فالتراث يحتاج منّا أن نقدّر رجالاته، وأن نتعامل معه بأسلوب انتقائي، وهذا معناه أن نستفيد منه ما له حضورٌ في واقعنا اليوم، وأن نهمل ما لا حاجة له، لأنّ الموروث الميّت خطرٌ كما حال الوافد المسموم حسب رأي مالك بن نبي(السحمراني، 2012، ج1، ص: 100).

لذا من المهمّ –حسب مالك بن نبي– أن يتأمّل الشاب المسلم اليوم مع قرآنه ويتطلّع إليه من زاوية جديدة تختلف تمامًا عن الزاوية التي من قبل، وأن ينظر إلى مسائله وقضاياه بعقليّة معاصرة، ويتعاطى

معها بروح يغريها النقد والتساؤل، لا بروح يدفعها مجرّد النقل وكثير من التكاسل، وبالتالي فإنّ حثّ المسلم المعاصر على ايجاد منظور مغاير في طرح القرآن، ووضع موضوعاته ضمن اشتراطات علوم العصر بات الرهان الأكبر الذي يتّجه مالك بن نبي إلى بلوغه كما سيأتي.

4،4. إعادة بعث وإحياء مواضيع القرآن من جديد

وهو الهمّ المعرفي الذي هيمن على كافّة مفاصل المقاربة البنابويّة للظاهرة القرآنيّة؛ فقد كرّس جهوده لتكون لمسائل القرآن وإشكالاته قدرةً على الانبثاق والتجلّي في ثوب جديد، وليتسنّى طرحها ومناقشتها بشكل أحدث وأعمق، وتجسّد ذلك بوضوح من خلال ابتكاره "منهجيّة متميّزة في استثمار نصوص الوحي، وطريقة فذّة في تناول القضايا على نحوٍ غير معهود"(مغلي، 2003م، ص: 28) ؛ حيث تتمكّن تلك المنهجيّة – في ظلّ فتوحات علوم الإنسان والمجتمع المعاصر– من تجاوز المعهود التقليدي والأدوات المنهجيّة التراثيّة التي اعتقل فيها علماء القرآن أثناء بسطهم تلك القضايا ومساءلتها– إلى مستوى وأفق ابستيمولوجي تقتضيه السياقات العلميّة الراهنة، وهي مرحلة تجاوزيّة شاقّة ولا شكّ كونها؛ تستدعي استيعاب و عبور خطّ المؤسّسة التقليديّة في فهم القرآن أوّلًا، ثمّ شقّ طريق نحو مرحلة جديدة تؤسّس لخلع طابع علم العصر على موضوعات القرآن، ومعالجتها بالاستناد إلى تلك العلوم ومنطقها، مرحلة يبدأ فيها المتعاطي مع القرآن في عرض مسائله ومباحثه وهو على يقين تامّ بأنّه سيؤول في نهاية الأمر إلى طروحات جديدة يعتصم بها المسلم المعاصر في مواجهة تحدّياته الراهنة ، والسير قدمًا نحو النهوض، لا أن يكتفي باجترار آراء السلف، واقتفاء سبلهم وهو مكتوف الرأي والفكر، منكفئًا على منهج واحدٍ إلى أن ينتهي به الأمر عند النقطة الأولى التي انطلق منها، وتذهب جهوده جفاءً من غير سعيٍ منه إلى توجيه طاقته نحو الغاية المنشودة من التعاطي مع القرآن، و بذل الوسع في تكريس فهمه له في تغيير واقع الأمّة، والاستجابة إلى متطلّباتها، والإجابة على تساؤلاتها الراهنة لا من البحث خلال التجارب الماضية، واستعارة منظومات تفكير جاهزة تزيد من تكلّس العقل الإسلامي، وتجعله غير قادر على الإبداع والاجتهاد في قضاياه المعاصرة، وإنّما نحن مطالبون بأن نرسم معالم تجربتنا الخاصّة، ونسهم في إرساء كسبنا التاريخي وفق المعطيات والظروف المعاصرة(الورزادي، 2013م، ص: 05).

4،5- استثمار تحديث منهجية التفسير في بناء التغيير

فإذا كان جمهور المفسّرين والمجدّدين المصلحين سعوا إلى بلوغ هذا المقصد من خلال دعوتهم إلى تفعيل فهم القرآن في معالجة أدواء الأمّة الإسلاميّة، فإنّ مالك بن نبي جعل التغيير في منهج التفسير شرطًا أساسيًّا محقّقًا لذلك المطلب؛ بحيث يكون ذلك التغيير الذي نشقّ الطريق نحوه مشروطًا ومرهونا وموقوفًا على ايجاد مسلك جديد، ومنهج مغاير، ولا سبيل أمامنا سوى الأخذ بناصيّة "هذا المنهج لتفعيل

فهم المسلمين للقرآن الكريم، والأخذ بأيديهم نحو فهم يحرّك النفوس الهامدة، ويسير بها قدمًا تجاه التغيير نحو الأفضل"(دراجي،2003 م، ص: 09) ، وذلك من باب قناعة راسخة في أذهان نخبة الأمّة، وإدراك جازمٍ بأنّ "أهمّ شروط تحقيق الفاعليّة والتأثير في أيّ نشاط إسلامي ؛ فهم المسلم المُخَاطَب لمحتوى وطبيعة الخطاب الموّجّه إليه فهمًا دقيقًا"(العلواني، 1995، ص: 11) يتجاوب من خلاله مع أسئلة الراهن، ويبحث في سبل وضع مصير المسلم المعاصر على سكّة الحضارة العالميّة لا على هامشها، ومن ثمّة إعادة الاعتبار لدوره في وفاعليّته في التاريخ الإنساني بعد مسار طويل من التكلّس والجمود؛ "فالفهم السليم في نظره هو الفهم الذي يستلهم الوقائع الاجتماعيّة والتاريخيّة التي تقع تحت سمع الناس وأبصارهم"(دراجي، 2003م، ص: 09) ، ومن خلال هذا الرؤية نستشفّ بوضوح سيطرة منطق التطبيق على تفكير مالك بن نبي وهو ما يميّزه عن غيره ودليل ذلك المنطق "أنّ منهج التحليل القرآني عنده لا يتوخّى في التفسير أن يبلّغ معلومة أو يقرّر مبدأ أو يشير إلى سنّة من السنن بقدر ما كان مصبّ تفكيره، وهو يعلم أنّ الذي يخاطبه مسلم ولا مراء، على تحفيزه، داخل قلبه وفي ضميره وعقله من أجل تثوير هذه المفاهيم ونقلها عبر التفسير من قوّة الإيمان إلى فعل السلوك بهدف بناء منطق التغيير في النفس ما دمنا نملك أدواته توصّلًا إلى تحقيقه في واقعنا المحيط"(مغلي، 2003م، ص: 04) ، من هذه المعطيات يقترح مالك بن نبي ضرورة إيجاد مذهب اجتماعي للتفسير، ومن ثمّ التفسير عن حركة الأفكار في العالم عامّة، وعن الحياة الاجتماعية بصفة خاصّة، لقد قدّم مالك بن نبي نماذج كثيرة للتفسير تستند إلى علم الاجتماع أكثر مما تستند إلى علم أصول الفقه، أو أصول التفسير، فلم يهتم بتفسيرات آيات الأحكام التّي يرى أنّها من اختصاص الفقهاء، بقدر ما اهتم بالآيات المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي والسياسي، لأنّها في رأيه تحقّق في نفس المسلم الوظيفة الاجتماعية للدّين بما تبعث فيه من الفعالية الروحية؛ فتجده في كتابه شروط النهضة ينطلق من قوله تعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِم" (الرعد 11) فهو يقرّر بأنّ هذا النص القرآني يجب فهمه في ضوء التاريخ(هواري، 2020م، ص: 57).

4، 6- تفعيل مقوّمات القرآن للسير نحو الوجهة الحضاريّة الصحيحة

والتي منطلقها الدفعة القرآنيّة، فهي التي تمكّن المسلم المعاصر من استلهام معطيات ومقوّمات الآية أو الكلمة القرآنيّة في شحن نفس الفرد، وتجديد طاقات المجتمع، واستعادة حيويّته التي فقدها، وحثّها على المضيّ قدمًا نحو إقلاع حضاري تستعيد به الأمّة أمجادها السالفة، تلك" الدفعة القرآنيّة التي لا يعوّضها أيّ معوّض زماني، ومن خلال تركيب القرآن في كلّ من الثقافة والقيم اللتين يقدّمان عبر برنامج تربوي فاعل لبناء الإنسان، الذي هو أصل قصّة الصعود جميعها، وفي كلّ الحضارات"(عبد الله حسان، 2018م، ص:155).

تلكم إذن الغايات والآفاق الكبرى التي يسعى إليها مشروع بن نبي، ويسعى جاهدًا إلى تجسيدها على صعيد الواقع، وهي رهانات تجعل من القرآن مبدءًا وغاية، وتتخذ من الإنسان المسلم وسيلةً لبلوغ تلك الغاية، فلئن كان القرآن قطب الرحى الذي يدور حوله مشروع مالك بن نبي الحضاري، فإنّ الفرد المسلم ولا شك يعدّ الحلقة التي تصل بحضارة الأمّة الإسلاميّة إلى مكانتها التي وضعها القرآن فيها "كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس"؛ وانطلاقًا من الخارطة المنهجيّة والمعرفيّة لإعادة تدبّر القرآن التي اقترح مالك بن نبي معالمها، وإحداثيات التغيير التي صاغها، ستتمكّن الأمّة من قطع دابر التخلف والتبعيّة التي ارتهنت تحت سلطانها.

5. خاتمة

في ختام هذا البحث نؤكّد على أنّ مالك بن نبي يعدّ أحد مفكّري الجزائر المعاصرين الذين بذلوا جهودًا كبيرة في ساحة الفكر الإسلامي عمومًا والدراسات القرآنيّة على وجه الخصوص؛ وخلّفت جهوده ودراساته جملة من الرؤى التصوّرات حول القرآن وقضاياه كما وقد أجاد وأفاد في تقديم رؤية متكاملة، وإرساء منهج قويم في التعاطي مع النص القرآني، واستنطاق معانيه، والاستمرار في استجلاء مكامن إعجازه وقداسته بما تواءم مع مستجدّات العصر، ومكتسباته الراهنة سواء من خلال تراثه الفكري عمومًا، أو من خلال كتابه "الظاهرة القرآنيّة" الذي جعله ألّفه ليكون بمثابة دعوة صريحة وملحّة إلى تجاوز المنهج الكلاسيكي في تلقّي النص القرآني من جهة واقتراح منهج بديل على المسلم المعاصر لقراءة القرآن وتدبّره من جهة أخرى.

ومن خلال ما سبق نخلص إلى أنّ:

– أنّ وعي مالك الكبير بن نبي بتلازم العلاقة بين القرآن والحضارة هو المحرّك الذي دفع مالك بن نبي إلى طرح جديد لإشكالات القرآن ومحاوره وربطها بالتغيير الحضاري الذي ينشده.

– أنّ دعوة مالك بن نبي إلى تجديد منهج قراءة الظاهرة القرآنيّة لا تعني تأسيس قطيعة مع منهجيّة التفسير القديم وإنّما هي محاولة جادّة لتعميق الصلة بالمنتج المعرفي الذي خلّفه السابقون، من خلال اعتباره حجر الأساس الذي تبنى عليه محاولات المجدّدين في مجال التفسير.

– الردّ على مطاعن ومزالق المستشرقين، وبيان تهافت مناهجهم، وتحاملهم المقيت في دراساتهم حول القرآن من أبرز غايات مالك بن نبي وقد انبرى إلى محاججة ادعاءاتهم لا على أساس انتمائه الإسلامي وإنّما على أساس المنطق العقلي والعلم الحديث.

– تؤسّس المقاربة البنابيّة للظاهرة القرآنيّة إلى طرح قضيّة الإعجاز القرآني ضمن خارطة معرفيّة ومنهجيّة جديدة، وتدعو المسلم المعاصر إلى نهج سبل بديلة من أجل تلقّيها، والاستفادة من وسائل العلم المعاصر في البرهنة عليها.

– طرحت مقاربة الظاهرة القرآنيّة لمالك بن نبي إشكالية العلاقة بين القرآن والكتب المقدّسة من خلال موازنة موضوعيّة بينها، مؤكّدًا على الصلة الدائمة بين القرآن وتلك الكتب، ومعترفًا بهيمنة القرآن عليها؛ من حيث أنّه جاء مصدّقًا لها، ومصحّحًا لانحرافاتها.

توصية

بقدر إيماننا العميق بقيمة تلك المنظومة التي أسّس لها مالك بن نبي ونظرته إليها بمنظار استشرافي، وببصيرة ثاقبة، متشبّعة من معطيات القرآن، وواعيّة بضرورة نهج مسلك جديد في التعاطي معه في زمن بات فيه الفكر الإسلامي يركُنُ إلى التقليد وينأى عن التجديد بقدر إدراكنا التّامّ بأنّ مشكلة تأخّرنا عن فهم مقاصد ومساعي هذا الرجل إنّما تكمن بالدرجة الأولى في جفاءنا الكبير عن محاولة جادّة ومتجدّدة للتعاطي الصحيح مع كتابه "الظاهرة القرآنيّة" من الأساس باعتباره الأصل الذي تخلّقت منه بقيّة إسهاماته؛ إنّنا بحاجة إلى تجديد تحاورنا مع هذا السفر بالذات إذا ما أردنا الوقوف عند زاوية الانطلاق، ونقطة التغيير الصحيحة التي نأملها في واقعنا المعاصر.

6ـ قائمة المراجع

1/ القرآن الكريم

• المؤلّفات:

1) أبو الفضل منى والعلواني، طه جابر، (2009م)، نحو بناء علوم الأمّة الاجتماعيّة والشرعيّة، القاهرة، مصر، دار السلام.
2) أبو القاسم حاج حمد، محمّد، (دت) القرآن والمتغيّرات الاجتماعيّة والتاريخيّة، بيروت، لبنان، دار الساقي.
3) بن نبي، مالك، (1969م) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، بيروت، لبنان، دار الإرشاد للنشر.
4) بن نبي، مالك، (1986م) وجهة العالم الإسلامي، بيروت، لبنان، دار الفكر المعاصر.
5) بن نبي، مالك، (1987م) الظاهرة القرآنيّة، بيروت، لبنان، دار الفكر المعاصر.
6) بن نبي، مالك، (1991م) دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دمشق، سوريا، دار الفكر.
7) الجمل، بسام، (2018م) مقدّمة كتاب، علوم القرآن في الابستيمية المعاصرة، مقاربة تفكيكيّة، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للنشر، ط1.
8) حسن، تمّام (2000م) الأصول، القاهرة، عالم الكتب.
9) رشيد رضا، محمّد، (1947م)، تفسير المنار، القاهرة، دار المنار.
10) ساعي، احمد بسام المعجزة إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، (2012) مهرندن فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكيّة، ج1 المعهد العالم للفكر الإسلامي.
11) الشمري، غازي ويايوش، جعفر، (2017م) مالك بن نبي بين التمثّل والإبداع، دمشق، دار نينوى للنشر.
12) الصالح، صبحي، (2009م) دراسات في فقه اللغة، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين.

13) عبد الله حسّان، حسّان، (2019م)، المشروع الحضاري عند مالك بن نبي قراءة معاصرة، المغرب دار برهون الدولية للنشر.

14) العلواني، طه جابر، (1995م)، إصلاح الفكر الإسلامي؛ مدخل إلى نظر خطاب الفكر الإسلامي المعاصر، فرجينيا، الدار العالميّة للكتاب الإسلامي، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

15) المكّي، باسم، (2018م)، تاريخيّة النص القرآني وإشكاليّة جمع المصحف في الدراسات القرآنيّة الاستشراقيّة، ضمن كتاب جماعي بعنوان" علوم القرآن في الابستيميّة المعاصرة، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود.

16) النيفر، أحميدة، (2000م) الإنسان والقرآن وجهًا لوجه" التفاسير المعاصرة قراءة في المنهج، بيروت، لبنان دار الفكر المعاصر.

17) هاني، إدريس، (2006م)، خرائط إيديولوجيّة ممزّقة الإيديولوجيا وصراع الإيديولوجيات العربيّة والإسلاميّة المعاصرة، ، بيروت، لبنان، مؤسّسة الانتشار العربي.

• **الأطروحات**

بوعلاقي، محمّد الصادق، (2014/2013)، تجديد مالك بن نبي في الفكر الديني منطلقاته وحدوده من خلال كتابه الظاهرة القرآنيّة، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة سوسة، تونس.

• **المقالات**

1) درّاجي، محمّد، (دت) ملامح المنهج الاجتماعي في التعامل مع القرآن الكريم عند مالك بن نبي، بحث منشور، مجلة رؤى دراسات، السنة الرابعة، العدد20.

2) طبجون، رابح، (2019م)، الظاهرة القرآنيّة عند مالك بن نبي مقاربة في المفهوم والإجراء، بحث منشور، مجلّة المعيار، قسنطينة، العدد 46.

3) مغيلي، محمّد البشير، السنّة الإلهيّة في تحليليّة مالك بن نبي ومنهجية المفسّرين، بحث منشور، مجلّة رؤىً، السنة الرابعة، العدد20.

4) الهوّاري، حمّادي، (جوان2018)، الوحي القرآني بين مالك بن نبي ومحمّد أركون، بحث منشور، مجلّة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع، العدد1.

5) هواري، ناصر، (أكتوبر2020م)، اجتماعية الفكر عند مالك بن نبي، قراءة في منطلقات وفاعلية المنهج، بحث منشور، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، مركز جيل البحث العلمي، العدد68.

6) الورزادي، ياسين، (24 أكتوبر2013م)، فلسفة السؤال في القرآن الكريم، مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب.

• **المداخلات:**

1) بوديرم، عبد الحفيظ، (ديسمبر 2011) التذوّق البياني للظاهرة القرآنيّة، بحث منشور، ضمن أعمال الملتقى الدولي: مالك بن نبي واستشراف المستقبل "من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد"، منشورات وزارة الشؤون الدينيّة والأوقاف، ج1، الجزائر.

2) السحمراني، أسعد مالك بن نبي والإنسان ومسار الحضارة، أعمال ملتقى مالك بن نبي واستشراف المستقبل، ج1، الجزائر.